الفكر النهضوي والتنويري عند رفاعة الطهطاوي (1801–1873م)

يُعدّ رفاعة رافع الطهطاوي رائد حركة التنوير والفكر النهضوي الحديث في الشرق العربي. جمع بين أصل زهرية شريفة ومعرفة دقيقة بالعلوم الغربية المعاصرة عقب بعثته إلى باريس، ليضع اللبنات الأولى لمفاهيم الوطن، المواطنة، والتعليم الحديث، ممهداً الطريق لنهضة الفكر العربي والسياسي.

أولاً: مفهوم الوطن والمواطنة وتحديث الدولة

شكلت أفكار الطهطاوي في كتابه الشهير *"مناهج الألبا ب المصرية في مآرب الأسانب العصرية"* تحولاً كبيراً في الفكر السياسي العربي عبر بلورة المفاهيم التالية:

- **مفهوم الوطن والمواطنة:** نقل الفكر السياسي من مفهوم "الرعية" المطيعة إلى مفهوم "الوطن" الشامل لجميع أبنائه على اختلاف أديانهم، ومفهوم "المواطنة" التي تجمع أبناء الأمة في حقوق وواجبات متساوية.
- **الحرية والمشروطية السياسية:** قارن بين المفهوم الإسلامي لـ "العدل والشورى" والمفهوم الغربي لـ "الحرية والدستور"، داعياً إلى تقييد سلطة الحاكم بالقوانين والتشريعات العادلة التي تكفل حماية حقوق الرعية.
- **الانتماء والارتقاء بالوطن:** اعتبر أن التمدن الحقيقي يتطلب حب الوطن والعمل على إصلاحه وتنميته، وأن خدمة الوطن واجب أخلاقي وديني على كل مواطن.

ثانياً: إصلاح التعليم وتعميمه كركيزة للتنظيم العمراني

أولى الطهطاوي التعليم أهمية مطلقة، مؤكداً أنه السبيل الوحيد لبناء المجتمع الحديث وتحقيق النهضة المرجوة:

- **تعليم المرأة وتمكينها:** كان الطهطاوي أول مفكر عربي يدعو صراحة في كتابه *"المرشد الأمين للبنات والبنين"* إلى تعليم الفتاة وتأهيلها للمشاركة في بناء الأسرة والمجتمع على حد سواء.
- **الترجمة ونقل العلوم المعاصرة:** بصفته مؤسس "مدرسة الألسن"، جعل الترجمة جسراً حيوياً للانتقال إلى الحداثة عبر تعريب المعارف الغربية في الطب، الهندسة، والعلوم العسكرية، دون تفريط في الهوية.
- **ربط التعليم بالتنمية الاقتصاديّة:** دعا إلى جعل التعليم خادماً لتطوير الزراعة، الصناعة، والتجارة، لتحقيق الاكتفاء الاقتصادي والقوة القومية.

ثالثاً: التوفيق بين الشريعة والحضارة الحديثة

اتسم الفكر الفقهي والتنويري عند الطهطاوي بالوسطية والقدرة على التوفيق بين التراث والحداثة:

- **التجديد والاجتهاد الفقهي:** أكد أن الشريعة الإسلامية لا تتنافى مع العلوم والعمران الحديث، ودعا إلى إعمال مقاصد الشريعة والاجتهاد لملائمة مقتضيات العصر المتغيرة.
- **الاستفادة من تجارب الأمم:** رأى في كتابه *"تخليص الإبريز في تلخيص باريس"* أن الأخذ بأسباب التطور العلمي والنظام المدني الغربي يمثل الحكمة والمصلحة التي أمر الشرع بالبحث عنها.

رابعاً: العمل والاقتصاد والمنافع العامة

اعتبر الطهطاوي أن كرامة الأمة وقوتها تستند إلى تنشيط قواها الإنتاجية وبناء اقتصاد قومي صلب:

- **قيمة العمل الشريف:** شدد على أن العمل هو أساس الثروة والعمران، ونبذ الكسل والاعتماد على الوظائف الحكومية فقط، محثاً على تطوير التجارة والابتكار.
- **تطوير المنافع العامة:** دعا إلى اهتمام الدولة ببناء المدارس، المستشفيات، الطرق، وشبكات الري، لكونها البنية التحتية الأساسية الكفيلة بفرز مجتمع صحيح ومنتج.

أبرز مؤلفات وإنجازات رفاعة الطهطاوي

اسم الكتاب / الإنجاز	المجال الرئيسي	الأثر التنويري والنهضوي
تخليص الإبريز في تلخيص باريس	أدب الرحلات والفكر الاجتماعي	انطباعات الرحلة إلى فرنسا، وعرض لمظاهر التمدن الحديث والنظام النيابي.
مناهج الألباب المصرية	الفكر السياسي والاقتصادي	تأصيل مفهوم الوطن، الوطنية، وحقوق المواطنة، وأهمية المنافع العامة.
المرشد الأمين للبنات والبنين	التربية والتعليم	الدعوة التاريخية لضرورة تعليم المرأة وتأهيلها لبناء الأسرة والمجتمع.
تأسيس مدرسة الألسن (1835م)	الترجمة واللغات	بناء حركة ترجمة واسعة ونقل العلوم والمعارف الغربية الحديثة إلى العربية.

من درر مقولات الطهطاوي: *"فلنعمر مساكن أوطاننا، ولنصلح سواد نفوسنا، ولنزين عقولنا بالعلوم، ولنصلح أفعالنا ومواقفنا لتكون البلاد مستقرة سعيدة، وتصير الأمة متمدنة حرة."*